الاقتصاد

عناصر الموضوع

مفهوم الاقتصاد	٩٨
الألفاظ ذات الصلة	٩٩
الموارد الاقتصادية	١٠٣
الإنتاج	١١٤
المبادئ الاقتصادية	١٢٢
حماية الاقتصاد من عوامل الفساد	١٣٤
الاقتصاد والأخلاق	١٤٠

مفهوم الاقتصاد

أولًا: المعنى اللغوي:

الاقتصاد افتعال من قصد.

ذكر ابن فاس أن أصل مادة (قصد) تدل على ثلاثة معانٍ: إتيان شيء وأمه، وكسر الشيء، والناقة القصيد: المكتنزة لحمًا[١].

وقال الراغب: «القصد: استقامة الطريق، يقال: قصدت قصده، أي: نحوت نحوه، ومنه: الاقتصاد»[٢]، فهو يعود إلى الأصل الأول الذي ذكره ابن فارس، كأنه لصحة قصده للشيء فهو يسير في خط مستقيم إليه، لا يلتفت إلى غيره، واستعير هذا المعنى للقصد بالاستقامة في التوسط والاعتدال في الشيء، أي لا يميل إلى أحد طرفي التفريط والإفراط[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال في المعجم الوسيط: «(الاقتصاد) علم يبحث في الظواهر الخاصة بالإنتاج والتوزيع»[٤].

وفي المعجم الاقتصادي: «الاقتصاد علم يبحث في كل ما يتعلق بالثروة، والمال، والتكسب، والتملك، والإنفاق، والاقتصاد يبحث أيضًا في مسائل الإنتاج والاستثمار، ومسائل الانتفاع والخدمات، ومسائل التوفير والادخار، ومسائل الغنى والفقر»[٥].

وعرفه الدكتور عناية: «بأنه مجموعة الأصول والمبادئ العامة الاقتصادية الثابتة والمستخرجة من القرآن، والسنة، ومجموعة التطبيقات، والحلول الاجتماعية المتغيرة، والإجراءات الشرعية والسياسات الاقتصادية المستندة إلى تلك الأصول والمبادئ العامة، والتي تحكم وتنظم الحياة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي»[٦].

ولم يرد لفظ (الاقتصاد) في القرآن الكريم، وإن كان تحدث عن قضايا تتعلق به، كما سيأتي بيانه في هذا البحث إن شاء الله.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٩٦، ٩٥.
(٢) المفردات، الأصفهاني ص ٦٧٢.
(٣) انظر: مجمع بحار الأنوار، الفتني ٤/ ٢٧٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٣٨.
(٥) المعجم الاقتصادي الإسلامي، الشرباصي ص ٣٦.
(٦) الأصول العامة للاقتصاد الإسلامي، غازي عناية ص ٣٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القناعة:

القناعة لغة:

«الرضا بالقسم»[١]، وقال الراغب: «القناعة: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها. يقال: قنع يقنع قناعةً وقنعانًا: إذا رضي، وقنع يقنع قنوعًا: إذا سأل. قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج:٣٦].

قال بعضهم: القانع هو السائل الذي لا يلح في السؤال، ويرضى بما يأتيه عفوًا... وأقنع رأسه: رفعه. قال تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾[إبراهيم:٤٣].

وقال بعضهم: أصل هذه الكلمة من القناع، وهو ما يغطى به الرأس، فقنع، أي: لبس القناع ساترًا لفقره كقولهم: خفي، أي: لبس الخفاء، وقنع: إذا رفع قناعه كاشفًا رأسه بالسؤال نحو خفى إذا رفع الخفاء»[٢]، وقال المناوي: «القناعة: لغة: الرضى بالقسمة. وعرفًا: الإقصار على الكفاف. ويقال: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها»[٣].

القناعة اصطلاحًا:

هي الرضا بما أعطى الله[٤].

وقال السيوطي: القناعة: الرضا بما دون الكفاية، وترك التشوف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود[٥].

الصلة بين القناعة والقصد:

«أن القصد هو ترك الإسراف والتقتير جميعًا، والقناعة الاقتصار على القليل والتقتير، ألا ترى أنه لا يقال: هو قنوع، إلا إذا استعمل دون ما يحتاج إليه، ومقتصد لمن لا يتجاوز الحاجة ولا يقصر دونها، وترك الاقتصاد مع الغنى ذم، وترك القناعة معه ليس بذم، وذلك أن نقيض الاقتصاد الإسراف، وقيل: الاقتصاد من أعمال الجوارح؛ لأنه نقيض الإسراف، وهو من أعمال الجوارح والقناعة من أعمال القلوب»[٦].

(١) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٧٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٨٥.
(٣) التوقيف، المناوي ص ٢٧٥.
(٤) مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ١٨٧.
(٥) مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٥.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٣٠.

٢ الوسط:

الوسط لغة:

قال ابن فارس: «الواو والسين والطاء: بناءٌ صحيحٌ يدل على العدل والنصف. وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه[١]، وفي لسان العرب: «وسط الشيء ما بين طرفيه»[٢].

الوسط اصطلاحًا:

قال المناوي: «الوسط: ما له طرفان متساويا القدر»[٣] وقال الكفوي: «ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:١٤٣]. يعني متباعدين عن طرفي الإفراط في كل الأمور والتفريط»[٤].

قال أبو السعود عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾[المائدة:٨٩]. « أي من أقصده في النوع أو المقدار»[٥].

الصلة بين الوسط والقصد:

وعليه أن الوسط يقارب معنى الاقتصاد، وهو بمعنى الاعتدال أو ما بين طرفي الإفراط والتفريط، أو ما بين البخل والسرف.

٣ الإسراف:

الإسراف لغة:

قال ابن فارس: « السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد، والإغفال أيضًا للشيء، تقول: في الأمر سرف، أي: مجاوزة القدر»[٦].

الإسراف اصطلاحًا:

تعريف الراغب الأصفهاني: «السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان»[٧]، وعرفه الطاهر ابن عاشور بقوله: « والإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[٨].

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٠٨.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦.
(٣) التوقيف ص ٣٣٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص ٩٣٨.
(٥) إرشاد العقل السليم ٣/ ٧٤.
(٦) مقاييس اللغة، ٣/ ١٥٣.
(٧) المفردات، ص٤٠٧.
(٨) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.

الصلة بين الإسراف والقصد:

أن الاقتصاد يعني التوسط بين الإسراف والتقتير.

٤ التبذير:

التبذير لغة:

من بذر، أي: أفسد وأنفق في السرف، وكل ما فرقته وأفسدته، فقد بذرته، والتبذير: إفساد المال وإنفاقه في السرف[١].

التبذير اصطلاحًا:

حكى الإمام القرطبي عن الإمام الشافعي بأن التبذير هو: «إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير».

قال القرطبي تعليقًا على قول الإمام الشافعي: «وهذا قول الجمهور»، وحكى القرطبي أيضًا عن أشهب، عن الإمام مالكٍ: «أن التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضعه في غير حقه»[٢].

الصلة بين التبذير والقصد:

أن الاقتصاد يعني التوسط بين التبذير والبخل.

٥ البخل:

البخل لغة:

مادة (ب خ ل) تدل على: «ضد الكرم»[٣]. وحد البخل الزبيدي رحمه الله تعالى بقوله: «إمساك المقتنيات عما لا يحل حبسها عنه»[٤].

البخل اصطلاحًا:

إمساك المال وعدم صرفه، حرصًا على بقائه وزيادته، وخوفًا من نفاده[٥].

الصلة بين البخل والقصد:

الظاهر أن البخل لفظ يدل على الإمساك، وهو مقابل للاقتصاد الذي يعني التوسط والاعتدال.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢٤٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٧.
(٤) تاج العروس، ٢٨/ ٦٢، ٦٣.
(٥) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٢٤٥.

٦ الشح:

الشح لغة:

«هو البخل مع حرصٍ. ويقال تشاح الرجلان على الأمر، إذا أراد كل واحدٍ منهما الفوز به ومنعه من صاحبه. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦]»[(١)]، وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشح عام، وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف»[(٢)].

الشح اصطلاحًا:

قال المناوي: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»[(٣)]. وقال الجرجاني رحمه الله تعالى: «بخل الرجل من مال غيره»[(٤)].

الصلة بين الشح والقصد:

الظاهر أن الشح لفظ يدل على شدة المنع، أو البخل بمال الغير، وهو مقابل للاقتصاد الذي يعني التوسط والاعتدال.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
(٢) لسان العرب، ٢/ ٤٩٥.
(٣) التوقيف، ص ٢٠٢.
(٤) التعريفات، ص ٤٢.

الموارد الاقتصادية

استخلف المولى سبحانه وتعالى الإنسان في الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها ومواردها، وسخر له كل ما في الكون من سماء وأرض وما بينهما، وأغدق عليه نعمه، ليتمكن من القيام بواجب الاستخلاف، وسنوضح ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الموارد الاقتصادية نعمة إلهية:

من كمال ربوبية الله تعالى لعباده وقيوميته عليهم أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وخلق لهم جميع ما يحتاجونه في هذه الحياة الدنيا من مستلزمات.

وقد حمد ربنا جل وعلا ذاته العلية على ذلك في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

أي: هو تعالى المربي جميع العالمين، بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة، فمنه تعالى، وهو معنى ربوبيته العامة لخلقه[١].

وربوبية الله تعالى لخلقه ليست مادية فقط، بل هي ربوبية عامة تشمل الأمور المعنوية أيضًا، ومن ذلك إرساله الرسل، وإنزاله الكتب، وأنه فطر عباده على معرفته.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١][٢].

ومن تلك المستلزمات الحياتية التي أنعم الله بها على عباده الموارد الاقتصادية، من الغذاء واللباس والمعادن والصخور والأخشاب والتراب وغيرها من مقومات الحياة والبناء والصناعة والعمل، وقد امتن الله تعالى على عباده بذلك في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

أي: خلق لعباده كل شيء مما يحتاجون إليه في ليلهم ونهارهم، وحضرهم وسفرهم، وفي جميع أحوالهم[٣]، و(ما) في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ هي (ما) الموصولة، والتقدير: آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال[٤].

وذلك من عظيم نعمة الله تعالى على عباده، أن هيأ لهم جميع ما يحتاجون إليه ويطلبونه لتقوم أمور حياتهم، ولذلك ذيل تعالى الآية بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ومن تلك النعم التي يحتاجها الإنسان في حياته ويسأل عنها الغذاء من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٤/ ٨٨٣٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٦.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٩.

الطعام والشراب، فهو قوت الإنسان الذي ينمو به ويعيش عليه، وقد امتن الله تعالى به على عباده في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾[الرحمن:١٣].

كما أقسم ببعض أنواعه في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[التين:١].

وذلك تنبيهًا لعباده على أهمية هذه الأنواع، وكونها آية من آياته، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

فامتن تعالى بمورد عزيز على الإنسان، هو الماء، الذي أنزله تبارك وتعالى من السحب، فأخرج لهم به من الثمرات المختلفة الأشكال والألوان، والطعوم والروائح والمنافع، وجعل من هذا الماء بحارًا تحمل السفن العظيمة وتنقلها المسافات البعيدة، وجعل منه الأنهار التي تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقًا للعباد؛ ليشربوا ويسقوا زروعهم وأنعامهم وغير ذلك من أنواع المنافع[1].

ومن تلك الموارد التي يحتاجها الإنسان في حياته ويسأل عنها: الأصواف والأوبار والقطن مما يحتاجه في لباسه، ووقاية جسده من الحر والبرد، وتزيين منظره وتحسينه، وقد امتن تعالى بذلك على عباده في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأعراف:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل:٨١].

والسرابيل الأولى في الآية: هي الثياب من القطن والكتان والصوف، وأما السرابيل الثانية في قوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ فهي الدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته[2].

وقال تعالى في بيان ما أنعمه على عباده من موارد الأرض الباطنة كالمعادن وغيرها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد:٢٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩١.

أي: خلق الله تعالى الحديد وأوجده لعباده، «لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك، وفيها القوة التي ترغم أنف الظالم، وتحمي المظلوم»[1]، وفيه منافع للناس «وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد»[2].

وقد ذكر الفخر الرازي كلامًا نفيسًا في منافع الحديد وفوائده.

قال رحمه الله: «وأما الحديد ففيه البأس الشديد فإن آلات الحروب متخذة منه، وفيه أيضًا منافع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٨٠].

ومنها أن مصالح العالم، إما أصول، وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة، والحياكة، وبناء البيوت، والسلطنة، وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله، وثوب يلبسه، وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع، فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تكوُّن هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتم إلا بالحديد،...

وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد، ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد، ويظهر أيضًا أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا.

ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله سهل الوجدان، كثير الوجود، والذهب لما قلّت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود، وعند هذا يظهر أثر وجود الله تعالى ورحمته على عبيده»[3].

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

(١) تفسير المراغي ٢٧/ ١٨٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٤٧١، بتصرف.

[الحجر:٢١].

فبين تعالى أنه مالك كل شيء، وأن جميع خزائن الأشياء بمختلف أجناسها وأنواعها عنده، «أي: في أمره وحكمه وتدبيره»[١].

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: «حسب ما تقضى حكمته، مما يصلح به أمر الناس وتعمر الأرض»[٢].

فالله تعالى ينزل لعباده ما يحتاجون إليه في هذه الحياة بالقدر الذي يحتاجونه، فإذا زادت حاجاتهم من ذلك فتح الله تعالى لهم من خزائنه ويسر أبوابًا جديدة في العلم والإنتاج ما يكفل لهم ذلك الاحتياج، فمثلًا في الوقود، كان الناس قديمًا يستعملون الحطب وخشب الشجر في تحصيله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾[الواقعة:٧١-٧٢].

ثم لما اتسعت حاجات البشرية منه، فتح الله تعالى لهم بابًا جديدًا في إيجاده وتحصيله، فاكتشفوا الفحم الذي كان أصله نباتًا مطمورًا أو حيوانًا مطمورًا في الأرض؛ ثم اكتشف البترول والغاز.

وقد أعد سبحانه وتعالى كل شيء في الأرض، وقدر فيها الأقوات من قبل أن ينزل آدم عليه السلام إلى الأرض ليعمرها، ويكون خليفة فيها، هو وذريته إلى أن تقوم الساعة، فإذا اشتكى العالم من نقص في احتياجاته، فإنما مرجعه إلى التكاسل وعدم حسن استثمار ما خلقه الله وقدره من أرزاق في الأرض.

ونرى التعاسة في كوكب الأرض رغم التقدم العلمي والتقني؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا في الحروب والتنافر. ولو أن ما يصرف على الحروب؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لعاش الجميع في وفرة حقيقية.

ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذي نقوم به نحن البشر هو المسبب الأول لتعاسة الإنسان في الأرض[٣].

وهكذا يبين الله تعالى لعباده ما أنعمه عليهم من موارد اقتصادية ومستلزمات الحياة، دون سؤال منهم أو طلب، بل إنعام منه وكرم، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٤].

فهذه الآية وغيرها من الآيات التي بينت تلك الموارد والثروات دليل على تحقق كفاية حاجة الإنسان من تلك الموارد.

فالمشكلات الاقتصادية التي تحدث أحيانًا ليس سببها ندرة الموارد، وبخل الطبيعة، كما تصوره المذاهب الاقتصادية

(١) البسيط، الواحدي ١٢/ ٥٧٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٧/ ٢٢٧.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٦٧١.

المنحرفة الأخرى؛ كالرأسمالية والشيوعية وغيرها.

وإنما سبب ذلك هو الإنسان نفسه، كما تقرره هذه الآية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فظلم الإنسان في توزيع الثروات، وكفرانه للنعمة بعدم استغلال جميع المصادر التي تفضل الله بها عليه الاستغلال الأمثل، هما السببان المزدوجان للمشكلة التي يعيشها الإنسان.

وبمجرد تفسير المشكلة على هذا الأساس الذي دل عليه القرآن، يصبح بالإمكان التغلب عليها، والقضاء على الظلم وكفران النعمة بإيجاد علاقات توزيع عادلة، وتعبئة كل القوى المادية لاستثمار الطبيعة، واستكشاف كل كنوزها[1].

ثم إن ظلم الإنسان ليس مقصورًا على سوء توزيع الثروات، بل يشمل أيضًا ظلمه بترك الطاعات وارتكاب المعاصي، وإذا كانت المعاصي سببًا في احتباس الرزق، ورفع النعمة، فإن الاستغفار سبب في نزول الغيث، وحصول الأرزاق[2].

إن العالم طافح بالخيرات، مشحون بالقوى بين يدي الإنسان، وتحت قدميه، غير أن سنة الله في الكون قضت أن على الإنسان السعي، فإن الأرض لا تنشق عن خيرها ولا يهبط النعيم من السماء دون سعي الإنسان. فلا حصاد دون غرس، ولا وفرة في الإنتاج دون كثرة في الجهود.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩].

«وهذه الآية ترشد إلى أن مواطن هذا النفع ليست خاصة بظواهر هذا الكون، وإنما هي مبثوثة في ظاهره الذي نحصل عليه بمجرد النظر، وفي باطنه الذي نحتاج إلى قوة في اقتحامه، وخوض غماره، وفي هذا إيحاء بالبحث عما استقر في باطن الأرض وطبقات الجبال، وقاع البحار، وما يحمل الماء والهواء من قوى الإنتاج، ومواد الصناعة والتعمير»[3].

ثانيًا: الموارد الاقتصادية:

١. الأرض.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي أنعم الله بها على عباده: الأرض بما تحتويه من ثروات وخيرات، كالمياه والمعادن والبترول والأحجار، وبكونها صالحة للزراعة والبناء وغير ذلك، وقد بين الله تعالى إنعامه على عباده في تسخير الأرض وتذليلها لهم، وما أودعه فيها من خيرات عظيمة في مواضع كثيرة من كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ

(١) انظر: اقتصادنا، محمد باقر الصدر ٢/ ٧٤٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٥١.
(٣) من توجيهات الإسلام، شلتوت، ص ١٣٦.

﴿ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

فأخبر تعالى أنه جعل الأرض ذلولًا، أي: سهلة، من الذل وهو اللين وسهولة الانقياد.

أي: سهل تعالى الأرض وسخرها وذللها لما يراد منها من مشى عليها، أو غرس فيها، أو بناء فوقها، أو غير ذلك من وجوه الانتفاع بها[١].

وذلك من رحمته تعالى بخلقه أن ذلل لهم هذه الأرض الكبيرة الواسعة لتتمشى مع حياة الإنسان وسعيه فيها.

ولذلك قال سبحانه: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: «فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات»[٢].

وقد بين تعالى بعض أنواع هذا التذليل والتسخير للأرض، كتثبيتها بالجبال لتستقر وتثبت بمن عليها، وإلا لكثرت فيها الزلازل والاضطرابات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء:٣١].

وكبسط الأرض ومدها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾[الرعد:٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[نوح:٢٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[البقرة:٢٢].

فبين تعالى أنه أنعم على عباده بجعله الأرض مبسوطة لهم كالفراش والبساط، تسهيلًا لحياتهم فيها وتيسيرًا لانتقالهم في طرقها الواسعة للوصول إلى أغراضهم وحاجاتهم، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[الرحمن:١٠].

فالأرض كل الأرض موضوعة للأنام كل الأنام، لكي يستغلوها ويسعوا فيها[٣].

ومن تذليل الله تعالى للأرض وتسخيرها لعباده جعلها صالحة للزراعة بما جعله فيها من مقومات الزراعة والإنبات، كالتربة الخصبة الغنية بالأملاح والمواد العضوية التي يتغذى النبات عليها وغير ذلك من المقومات، «ولو شاء الله تعالى لجعلها حديدًا، ونحاسًا فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها، ولا يحفر ولا يبني، وإذا مات لا يجد مدفنًا فيها»[٤].

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[الرعد:٣].

وقال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾[عبس:٢٧].

(١) انظر: البسيط، الواحدي ٢٢/ ٥٣، الوسيط، سيد طنطاوي ٨/ ١٨٣،

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١١.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٨٧.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨.

ومن تسخير الله تعالى الأرض لعباده: أن جعلها أجزاء وبقاع مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٤].

فمنها أرض طيبة منبتة، وأخرى سبخة لا تنبت، ومنها أرض رخوة وأخرى صلبة، ومنها أرض صالحة للزرع لا للشجر، وأخرى صالحة للشجر لا للزرع إلى غير ذلك[١]، ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: «بقاع متقاربات مختلفة الطبائع»[٢]، وهو قول يدل على الإعجاز؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلًا منها تناسب الطقس الذي توجد فيه؛ فزراعة الذرة مثلًا تحتاج مناخًا معينًا؛ وكذلك زراعة الموز، وهكذا كل منطقة هي مناسبة لما تنتجه، فالأرض ليست عجينة واحدة، بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به[٣].

وهكذا يذلل الله تعالى الأرض لخدمة الإنسان ومصالحه، فباختلاف الأرض في أجزائها وبقاعها تتنوع الأشجار والنباتات، فمنها قوت للبشر، ومنها قوت للبهائم، ومنها الدواء، ومنها الفاكهة، ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة.

ومن تسخير الله تعالى الأرض لعباده أنه جعل لهم التمكين فيها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠].

فبين تعالى أنه مكن عباده في الأرض، أي: أقدرهم على التصرف فيها[٤]، ومنحهم القوة على استغلالها والانتفاع بمواردها، وذلك بما هيأه لهم فيها من الأسباب؛ كتذليل الأرض وتهيئتها للزراعة والبناء، وما جعل لهم فيها مما يعيشون به «مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات»[٥]، وبما وهبهم من العقل والعلم والقوة.

وكل ذلك من تمكينه سبحانه لعباده وإنعامه عليهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: أن أكثرهم مع هذا الإنعام لا يشكرونه عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقد بين تعالى احتواء الأرض على الثروات والخيرات العظيمة في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٣٧، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٩٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٥٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧١٩٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٤.

﴿فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت:٩-١٠].

فأخبر تعالى عن مدة خلقه الأرض وتهيئتها لعباده، وهي أربعة أيام، يومان للأرض، ويومان للبركة وتقدير الأقوات فيها(١).

و«هذا الزمن إنما هو منظور فيه إلى طبيعة المخلوق لا إلى قدرة الخالق، وإلى أن هذا الزمن هو الذي قدره الخالق سبحانه وتعالى لينضج فيه المخلوق، ويستوفى فيه تمام خلقه، كالجنين في الرحم، حيث يتم تكوينه في تسعة أشهر، في عالم الإنسان، وفى زمن أقل أو أكثر في العوالم الأخرى من الأحياء، فالزمن جزء من وجود كل موجود، وفى تطوره من حال إلى حال، سواء في هذا، الحيوان، والنبات، والجماد، فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إشارة إلى الزمن الذي نضجت فيه الأرض، وتم تكوينها، وتهيأت لاستقبال الحياة فيها»(٢).

وقد أخبر الله تعالى أنه بارك فيها أي: جعلها مباركة، بأن أكثر فيها خيرها، فجعلها زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع، من الزروع والثمار المبثوثة فوقها، والمياه التي تخرج من جوفها. والكنوز التي تحصل من باطنها.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٢/ ١٢٩٠.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، أي: أرزاق ساكنيها ومعايشهم.

وقال قتادة: «خلق فيها جبالها وأنهارها وبحارها وشجرها، وساكنها من الدواب كلها»(٣).

وقيل: «خصائصها التي قسمها في البلاد مما خص به كل إقليم، فيحتاج بعضها إلى بعض في التقوت من الملابس والمطاعم والنبات»(٤).

وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم، فيعمر الكون، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم.

والآية عامة فهي تعم جميع ما ذكر مما يقتاته أهل الأرض ويحتاجونه في معاشهم(٥)، ولذلك قال تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: على وفق مراد من له حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٤](٦).

وهكذا يبين الله تعالى نعمته على عباده في تسخير الأرض وتذليلها، وجعلها موردًا من أهم موارد حياتهم ومقوماتها، وقد عد علماء الاقتصاد الأرض من أهم عوامل الإنتاج والموارد الاقتصادية.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٥.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٨٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٧.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٦.

٢. الإنسان.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي نوه إليها القرآن الكريم هو الإنسان بما آتاه الله تعالى من علم وعقل وقوة، وبما منحه من طاقة جبارة تمكنه من عمارة الأرض واستثمار خيراتها.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

فأخبر الله تعالى أنه خلق عباده من الأرض، ومكنهم من عمارتها، واستثمار ما فيها والانتفاع بخيرها[١].

قال أبو بكر الجصاص: «وقوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني: أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»[٢]، وقال ابن كثير: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: «جعلكم فيها عمارًا تعمرونها وتستغلونها»[٣].

كما وجه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى عمارة الأرض وإصلاحها في أكثر من حديث، كما جاء عن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من أحيا أرضًا ميتةً فهي له)**[٤].

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٣١٨.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٣١٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٣١.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في القيامة، رقم ١٣٧٨، ٣/ ٦٥٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٩٧٦، ٢/ ١٠٣٦.

والأرض الميتة أي: «التي لم تعمر، شبهت العمارة بالحياة، وتعطيلها بفقد الحياة، وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن، وهذا قول الجمهور»[٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما **من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)**[٦]، وغير ذلك من الأحاديث وهي كثيرة.

«إن الله سبحانه استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته، والناس في ذلك شركاء، والمسلمون ينفذون أمر الله ومقاصده.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/ ١٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ٣/ ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم ١٥٥٣، ٣/ ١١٨٩.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

والاستعمار: معناه التمكين والتسلط، كما هو واضح من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف:١٠].

وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

واللام في (لكم) تفيد الاختصاص على جهة الانتفاع للمخاطبين، أي أن ذلك مختص بكم، مما يدل على أن الانتفاع بجميع مخلوقات الأرض وما فيها من خيرات مأذون فيه، بل مطلوب شرعًا، واعتبر الفقهاء تعلم أصول الحراثة والزراعة ونحوها مما تتم به المعايش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

فالله تعالى جعل الإنسان خليفة في الأرض ليصلحها ويعمرها، ولذلك اختاره على الملائكة في ذلك الاستخلاف.

قال المراغي: «وفي استخلاف آدم عليه السلام في الأرض معنى سام من الحكمة الإلهية خفي على الملائكة، فإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص، فإنهم ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان، فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع، ولا تستخرج المعادن من باطنها، ولا تعرف خواصها الكيمائية والطبيعية، ولا تعرف الأجرام الفلكية ولا المستحدثات الطبية، ولا شيء من العلوم التي تفنى السنون ولا يدرك الإنسان لها غاية»[(٢)].

٣. العمل.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي نوه القرآن الكريم إليها هو العمل والجد فيه، فقد حث القرآن الكريم على العمل، ودعا إليه في آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠].

فقوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ هو دعوة من الله تعالى لعباده إلى العمل في هذه الحياة، وإلى السعي في الأرض، والضرب في وجوهها المختلفة،

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.

(٢) تفسير المراغي ١/ ٨٥.

فالله سبحانه قد سخر للناس خيرات كثيرة في هذه الأرض، وعليهم أن يتحركوا في كل وجه على هذا البساط، وأن يمدوا أيديهم إلى كل شيء يقدرون عليه من هذا الخير.

فإن هم لم يفعلوا، فقد بخسوا أنفسهم حقها من الحياة الكريمة على هذه الأرض، ومناكب الأرض، هي أجزاؤها العليا فيها، أشبه بمنكبي الإنسان، وهما جانبا الكتفين، وهذا يعنى أن يستدعي الإنسان قواه كلها حتى يأخذ مكانًا متمكنًا من الأرض، يستطيع به أن يستثمر قوى الطبيعة فيها.

فهذا هو مكان الإنسان الذي يعرف قدر إنسانيته، إنه الخليفة على هذه الأرض، ومقام الخلافة يقتضيه أن يأخذ مكان الصدارة فيها، وأن يجلس مجلس السلطان من رعيته، وفى تعدية الفعل (امشوا) بحرف الجر (في) بدلًا من (على) إشارة إلى أن ينفذ الإنسان في أعماق هذه المناكب، وإلى أن يعمل على كشف أسرارها، لا مجرد اتخاذها طريقًا يمشى عليه[1].

ورغم كثرة الأدلة التي تحث المسلمين على أن يكونوا منتجين لا مستهلكين، إلا أن العديد من الأقطار الإسلامية أصبحت أسواقًا لمنتجات غير المسلمين، وهذا ما يحرص عليه أعداء الإسلام حتى يبقى العالم الإسلامي سوقًا لمنتجاتهم، ويسهل عليهم التدخل في الشؤون الداخلية للأقطاره، ولذلك ينبغي على المسلمين أن يستغنوا عن غيرهم، وأن يكونوا منتجين لا مستهلكين، فإن من لا يملك قوته لا يملك قراره.

إنه لمن الواجب على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها؛ لتستغني عن غيرها، فهي تحتاج إلى غيرها بقدر ما تقصر في الإنتاج، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية. وقد أعطى الله المؤمنين ما يؤهلهم للصدارة واحتلال مكانهم، والمحافظة على مكانتهم، وإشادة كيانهم بالدين والدنيا معًا[2].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

وقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١١].

فبين تعالى أنه خلق الكون على هذه الكيفية من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما لتنتظم أوقات عباده وأعمالهم، فيعملون ويكدون في النهار، ويرتاحون في الليل،

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٥/ ١٠٦١.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٩.

وفي ذلك بيان لمشروعية العمل وأن الله أراده من عباده.

والعمل المطلوب من الأمة أفرادًا وجماعات هو العمل الجاد والنشاط.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل:٢٠].

فسمى الله تعالى السعي على الرزق ضربًا في الأرض، وفي ذلك إعلام منه تعالى لعباده أن العمل والكفاح في هذه الحياة يجب أن يكون في منتهى القوة والجد[(١)].

قال الشعراوي: «والضرب -كما نعرف- هو انفعال الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة. وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:١٠١]. معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال، ولماذا الضرب في الأرض؟ لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق، فحين يحبون أن يخرجوا خيراتها؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها، ويرموا البذور، وبعد ذلك الري، ومن بعد ذلك تخرج الثمار، وهذه هي عملية إثارة الأرض. إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة، والحق سبحانه يقول: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل:٢٠].

وما دامت المسألة ضربًا في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة»[(٢)].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٧٩.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٥٥٥.

الإنتاج

من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان أنه لما قضى باستخلافه في الأرض، هيأه لهذه المهمة، وسخر له كل ما في الكون، وعلمه أصول الإنتاج، ودله على العديد من مجالاته، وسوف نبين ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: تعليم الله للإنسان أصول الإنتاج:

من نعم الله على عباده أن علمهم كيف يعملون؟، وكيف ينتجون؟، حتى يقوموا بما أراده منهم من عمارة الأرض وإصلاحها، وحتى يوفروا حاجاتهم وضرورياتهم مما يحتاجونه في هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

فالله تعالى أنعم على الإنسان بأن أوجد له كل ما يحتاجه من الأشياء ويسأل عنه في حياته، وأنعم عليه بتعليمه كيف يستخدم وينتج من تلك الأشياء أشياء أخرى يحتاجها، فقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: بإيجادها لكم مادة خامة، أو بهدايتكم إلى إنتاجها، وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٣-٥].

فمن كرمه تعالى على الإنسان أنه علمه العلوم المختلفة بالقلم آلة الكتابة الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق، بعد أن كان لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم[1].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وقال تعالى في بيان امتنانه على خلقه بإيجاده ما يركبونه ويتنقلون عليه من الدواب: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

«أي: وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب، وهي كذلك زينة وجمال، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث: القاطرات، والسيارات، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجد به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان»[2] وهدايته إلى ما يسد به حاجته، وييسر حياته، وهكذا كلما اتسعت حاجة الإنسان فتح الله له بابًا جديدًا من الرزق والعمل والاكتشاف والاختراع.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١].

وقال تعالى وهو يعدد نعمه على عبده ونبيه داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠].

أي: «علم الله داود عليه السلام، صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده، فألان الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها، والفائدة فيها كبيرة، ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس»[3].

فعلم الله تعالى نبيه داود عليه السلام تلك الصنعة في عمل الدروع لينتفع بها ومن جاء بعده في مهمتهم في خلافة الأرض وإصلاحها، وهكذا الإنسان عمومًا في حاجة دائمة إلى المعرفة والتعلم؛ لأنه الخليفة في الأرض، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس، هذه الحركة تحتاج إلى فهم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات[4].

وفي قوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ إشارة إلى الأمة المسلمة في كل زمان ومكان، أن ترفع من دفاعاتها، وتتعلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٠.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٦٠٩.

أمور حربها، وصناعة سلاحها، حتى لا يطمع أعداؤها فيها وفي خيراتها.

فقد أوجب الله تعالى على الأمة الإسلامية أن تأخذ بأسباب القوة، من تدريب للطاقات البشرية، وتخطيط، وإدارة، وتصنيع.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال:٦٠].

وبذلك تحفظ الأمة الإسلامية لنفسها كرامتها وعزتها.

وقال تعالى في آية الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي: إذا طلب ممن علمه الله الكتابة أن يكتب بين متداينين كتاب الدين، فلا يمتنع من كتابة ذلك.

قال ابن كثير: «ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب»[(١)].

وفي الآية إشارة إلى «أن الإنسان لا يستقل بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ حتى في الأمور الحسية التي تدرك عن طريق النظر، أو السمع، أو الشم، لا يستطيع الإنسان أن يعلمها إلا بتعليم الله عز وجل»[(٢)].

وهكذا يعلم الله تعالى عباده أصول الصناعات والحرف، تفضلًا منه تعالى عليهم، وكلما زادت احتياجاتهم فتح لهم آفاقًا جديدة في العلم والمعرفة، كما هو مشاهد في واقعنا اليوم، كلما زادت البشرية في عددها واحتياجاتها، تقدم العلم والتكنولوجيا تقدمًا عظيمًا يسد تلك الحاجات.

ثانيًا: الأصل الإباحة في النشاط الإنتاجي:

الأصل في النشاط الإنتاجي هو الإباحة، وأما التحريم فيتوقف على نص شرعي يبينه ويخصصه.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٩].

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٢٤.

(٢) تفسير الفاتحة والبقرة، ابن العثيمين ٣/ ٤١٤.

فبين تعالى نعمته على خلقه بأن خلق لهم جميع ما في الأرض، وسخره وهيأه وأباح الانتفاع به.

قال رضا: «إن هذه الجملة هي نص الدليل القطعي على القاعدة المعروفة عند الفقهاء (إن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة) والمراد إباحة الانتفاع بها أكلًا وشربًا ولباسًا وتداويًا وركوبًا وزينة، وبهذا التفصيل تدخل الأشياء التي يضر استعمالها في بعض الأشياء وينفع في بعض، كالسموم التي يضر أكلها وشربها وينفع التداوي بها، وليس لمخلوق حق في تحريم شيء أباحه الرب لعباده تدينًا به إلا بوحيه وإذنه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس:٥٩]»[1].

فأخبر تعالى أنه خلق لعباده جميع ما في الأرض برها وبحرها وجوها، ظاهرها وباطنها، وسخرها له، وأمره بإعمارها وإصلاحها، والقيام بأمر الله فيها وشرعه، ولذلك جاء بعد هذه الآية من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

فهيأ الله تعالى الأرض، وأعدها للإنسان، ثم أوجده فيها.

كما بين تعالى أن الأرض بما فيها مسخرة للإنسان، لا العكس، فالأرض مخلوقة للإنسان ولمصلحته ودوره في الخلافة فيها، والإنسان «سيد الأرض وسيد الآلة! إنه ليس عبدًا للآلة كما هو في العالم المادي اليوم. وليس تابعًا للتطورات التي تحدثها الآلة في علاقات البشر وأوضاعهم كما يدعي أنصار المادية المطموسون، الذين يحقرون دور الإنسان ووضعه، فيجعلونه تابعًا للآلة الصماء وهو السيد الكريم!

وكل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان، ولا أن تستذله أو تخضعه أو تستعلي عليه وكل هدف ينطوي على تصغير قيمة الإنسان، مهما يحقق من مزايا مادية، هو هدف مخالف لغاية الوجود الإنساني. فكرامة الإنسان أولًا، واستعلاء الإنسان أولًا، ثم تجيء القيم المادية تابعة مسخرة»[2].

وقد ذم الله تعالى أهل الكفر في تحريمهم على أنفسهم بعض الأشياء التي أباحها لهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الأعراف:٣٢].

قال صاحب المنار: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: قل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٠٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٤.

أيها الرسول لأمتك: هي -أي: الزينة والطيبات من الرزق- ثابتة للذين آمنوا بالأصالة والاستحقاق في الحياة الدنيا، ولكن يشاركهم غيرهم فيها بالتبع لهم، وإن لم يستحقها مثلهم. وهي خالصة لهم يوم القيامة ...كما تدل عليه الآيات الناطقة بأن دين الله الحق يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعًا[1].

ثالثًا: مجالات الإنتاج:

بين الله تعالى في كتابه الكريم بعض مجالات الإنتاج المختلفة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

أي: أمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا فرغوا من صلاة الجمعة أن ينتشروا في الأرض، والانتشار يعني: «أن ينساح البشر لينتظموا في كل حركات الحياة، وبذلك تعمر كل حركة فيها»[2].

وفي ذلك «دعوة إلى أن يملأ المسلمون وجوه الأرض سعيًا وعملًا، وأن يأخذوا بكل ما يمكن لهم منها، ويقيم لهم فيها المقام الكريم، وألا يقصروا جهدهم على جانب منها، أو في ميدان من ميادينها، بل ينبغي أن يكون لهم في كل ميدان مجال، وفي كل موقع عمل، وفي الدعوة إلى الانتشار في الأرض بعد الاجتماع بين يدى الله في الصلاة، في هذا جمع بين العبادة والعمل، وبين ذكر الله والسعي في الأرض»[3].

وقد ذكر القرآن الكريم بعض مجالات الإنتاج، منها:

١. الزراعة.

التي بها حياة الأرض واستثمارها، وبها ينتج الإنسان قوته ورزقه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

أي: فليتأمل الإنسان وليتدبر في أمر طعامه الذي فيه بقاؤه، كيف دبرناه له وقدرناه، ليعلم أن الكون كله مسخر له، وأننا لو لم نيسره له لهلك، فمبدأ ذلك أننا صببنا الماء من السحاب صبًا، ثم شققنا الأرض شقًا، أي: بالنبات الذي هو في غاية الضعف يشق الأرض المتماسكة بالماء ويخرج خارجها، فأنبت الله من هذا الماء الحبوب كالحنطة والشعير، والعنب.

وقوله: ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو الرطب من البقل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٧.
(٢) تفسير الشعراوي، ٣/ ١٤٨٧.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤/ ٩٥٢.

وغيره، والزيتون والنخل...، إلى آخر ما ذكرته الآيات من النعم[1]، فبين الله تعالى أن زراعة الأرض سبب من أسباب رزق الإنسان وحصوله على طعامه منها.

كما ذكر تعالى بعض تفاصيل عملية الزراعة في قصة يوسف عليه السلام، في قوله سبحانه: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧].

أي: يطلب يوسف من أهل مصر أن يزرعوا بدأبٍ أي: بمواظبة وبدون كسل، وما حصدوه فأخبرهم أن يأكلوا القليل منه، ويتركوا بقيته محفوظًا في سنابله، والحفظ في السنابل يدل على ما آتاه الله عز وجل ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، وقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خزن في سنابله؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس[2].

٢. التجارة.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم، التجارة، وفيها يتحصل الإنسان على المال والبضائع المختلفة.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة:٩-١٠].

أي: «إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي من رزقه»[3].

٣. الصناعة.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم: الصناعة، وبها يوجد الإنسان ما يحتاجه من أمور حياته.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز كثيرًا من أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، فمن الصنائع:

❁ الخياطة.

قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٢٦٤، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٩٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١١/ ٦٩٧٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٠٨.

❁ **الحدادة.**

قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾[سبأ:١٠-١١].

❁ **الغزل.**

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[النحل:٩٢].

❁ **النسيج.**

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[العنكبوت:٤١].

❁ **الفلاحة.**

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤﴾[الواقعة:٦٣-٦٤].

❁ **الصيد.**

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة:٢].

وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[المائدة:٩٦].

❁ **الغوص.**

قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[ص:٣٧].

❁ **الملاحة.**

قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾[الكهف:٧٩].

❁ **الكتابة.**

قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[العلق:٤].

❁ **الطحن والخبز.**

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾[يوسف:٣٦].

❁ **الطبخ.**

قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[هود:٦٩].

❁ **البناء.**

قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[الشعراء:١٤٩].

وغير ذلك[1].

كما جاء في القرآن الكريم تفصيل بعض الصناعات وبيانها، كقوله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾[سبأ:١٠-١١].

قيل: أي: ألان الله الحديد لداود عليه السلام، وجعله في يده كالعجين، يشكله كيف يشاء دون أن يدخله نارًا أو يضربه بمطرقة، والظاهر أن إلانة الحديد لداود، إنما كانت جارية على العادة، وذلك بما علمه الله تعالى من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها؛ لأن الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، وأن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤٣٢.

الله سبحانه قد علمه الأسلوب الذي يلين به الحديد، وهو عرضه على النار حتى يحمر، ويقبل الطرق[1].

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ التقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير في عمل الشيء. والسرد: نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها. أي: آتينا داود كل هذا الفضل الذي من جملته إلانة الحديد في يده، وقلنا له يا داود: اصنع دروعًا سابغات تامات، وأحكم نسج هذه الدروع، بحيث تكون في أكمل صورة، وأقوى هيئة»[2].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)**[3]»[4].

٤. الثروة الحيوانية.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم: الثروة الحيوانية.

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه:٥٤].

٥. الثروة المائية.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤].

٦. الثروة المعدنية.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨، التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٧٨٥.

(٢) الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١١/ ٢٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، ٣/ ٥٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٦٧.

المبادئ الاقتصادية

اشتمل القرآن الكريم على تشريعات تتلاءم مع فطرة الإنسان وحاجاته، ولذلك شرع الملكية الفردية، وحفظ الحقوق الخاصة، كما أمر بحفظ المال العام، والتكافل الاجتماعي، وسوف نبين هذه المبادئ الاقتصادية الأصيلة في النقاط الآتية:

أولًا: الملكية الخاصة:

الإنسان مفطور على حب التملك أو ما يعرف بالملكية الفردية، منذ أن أهبطه الله تعالى إلى الأرض إلى أن يرثها، وهو أمر معلوم بالضرورة[1].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

أي: المال[2]، وبإثبات هذه الملكية كحق للفرد يتحقق الأمن في المجتمع، فيأمن كل شخص على ممتلكاته، ومدخراته، وثمرة عمله وجهده، مما يدفعه إلى العمل والجد والاجتهاد، وتقوية أواصر المودة والاحترام بين أفراد المجتمع، ولقد قرر القرآن الكريم هذه الملكية كحق من حقوق الأفراد، وسن التشريعات التي تحميها وتضمن عدم الاعتداء عليها، كما وضع ضوابط لتهذيبها وتنظيمها.

فمن تقرير القرآن للملكية الفردية واحترامه لها.

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

فالكاف ضمير الخطاب في آتاك ونصيبك يدل على هذه الملكية، ويشهد لها.

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢].

أي: قسم الله تعالى الأرزاق بين عباده، وفاوت بينهم فيها، فجعل منهم الغني والفقير والخادم والمخدوم والحاكم والمحكوم.

والحكمة من هذا التفاوت في الأرزاق أن يستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضًا في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله تعالى له من رزق واستعداد[3].

فدلت الآية الكريمة على أن تفاوت

(١) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة، غالب عواجي ٢/ ١١٩٣.

(٢) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٣٠١، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٨١٨.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٦، الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٧٧.

الناس في الأرزاق والحظوظ سنة من سنن الله الكونية القدرية التي أرادها لعباده، لتنتظم بها حياتهم، فلا يستطيع أحد من أهل الأرض البتة تبديلها ولا تحويلها، بوجه من الوجوه، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[فاطر:٤٣][1].

«وكل محاولة للإنسان في تغيير هذه السنة الثابتة تؤدي إلى اضطراب نظام الحياة والعمل، لأنها تعني محاولة التسوية بين الخلق جميعًا فيما يكتسبه كل منهم من رزق دونما فارق في ذلك بين العامل والكسول... فهي ببساطة تسقط كل قيمة حقيقية للعمل»[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[النحل:٧١].

قال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة»[3].

كما جاء في القرآن الكريم النهي عن الاعتداء على هذه الملكية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢].

فالأمر برعاية مال اليتيم، والوفاء في الكيل والميزان، كل ذلك لحفظ الحقوق لأصحابها، واحترام ملكيتهم لها، إلى غير ذلك من التشريعات التي بينها القرآن الكريم لحماية الملكية الخاصة من أي اعتداء.

ويصل القرآن باحترام هذا الحق مداه حين يأمر بقطع يد السارق الذي يعتدي على هذا الحق في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[المائدة:٣٨][4].

كما بين القرآن الكريم بعض أسباب ووسائل حصول هذه الملكية وانتقالها، ومنها:

❁ **الميراث.**

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٤.
(٢) الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، محمد بلتاجي ص ٣٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤١١.
(٤) انظر: الاقتصاد الإسلامي، محمود الوادي ص ١٠٣.

فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النساء:١١].

❁ **البيع.**

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥].

❁ **الهبة.**

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

كما أمر القرآن بالعمل والتكسب وهو سبب من أسباب التملك.

قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

إلى غير ذلك.

والقرآن الكريم إذ يقرر الملكية الخاصة كحق من حقوق الأفراد، فإنه لا يترك تقرير هذا الحق حتى يطغى دون تقييد، فليس معنى الملكية الخاصة للفرد أن يتصرف فيها خارج حدود الشرع، وفيما حرمه الله، وليس معناها أيضًا أن يمنع حقوق الله منها ولا يؤديها، ولذلك حرم الله تعالى كنز الأموال المفضي إلى منع أداء الزكاة، كما حرم التبذير لأنه إنفاق للمال فيما حرم الله تعالى؛ كالخمر والميسر والرشوة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾[الإسراء:٢٦-٢٧].

كما حرم تعالى الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

كما بين القرآن الكريم حرصه على ألا تتحول هذه الملكية إلى تكدس في الثروات يؤدي إلى ترف وفساد وسيطرة.

وقد استشف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

حيث ترك الأراضي المفتوحة في العراق والشام ومصر بيد أهلها، ولم يقسمها بين الفاتحين، حتى لا تنحصر الثروة بأيديهم، ولا يبقى شيء لمن يأتي بعدهم، ووافقه على ذلك الصحابة رضي الله عنهم مستدلًا بهذه الآية[1].

(١) انظر: الخراج، أبو يوسف ص٣٤، الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٧/ ٥٠١٥.

ثانيًا: حفظ المال العام:

المال عصب الحياة، وضرورة من ضروریاتها، «وقد اعتبر الشارع المال من الكليات الخمس التي تقوم بها حياة الناس، وشرع الحدود والعقوبات والزواجر للحفاظ عليها»[1].

قال الغزالي: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة»[2].

وقد بين القرآن الكريم شرف المال وقيمته، وأمر بحفظه في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

فنهى تعالى عباده المؤمنين عن إعطاء الأموال للسفهاء الذين لا يحسنون التصرف فيها خشية إفسادها وإتلافها.

وأشار تعالى إلى علة ذلك النهي بقوله في الآية: ﴿قِيَٰمًا﴾ أي: التي «تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها»[3].

وقال الفخر الرازي: «اعلم أنه تعالى أمر المكلفين في مواضع من كتابه بحفظ الأموال.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾[الإسراء:٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:٦٧].

وقد رغب الله في حفظ المال في آية المداينة حيث أمر بالكتابة والإشهاد والرهن، والعقل أيضًا يؤيد ذلك؛ لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يمكنه القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة المال؛ لأن به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار.

فمن أراد الدنيا بهذا الغرض كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المعوقات عن كسب سعادة الآخرة»[4].

والمال باعتبار الملكية ينقسم إلى قسمين: خاص، وقد تقدم الكلام على الملكية الخاصة، وعام، وهو المال الذي

(١) الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، محمد بلتاجي ص ٣٠.
(٢) المستصفى، ص ١٧٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٤.
(٤) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٩٦.

خصص للمنفعة العامة، أي: جماعة المسلمين، ويشمل هذا النوع من الملكية: المرافق الأساسية للدولة، كالطرقات ومجاري الأنهار والشوارع، وكالبحار والغابات، والنفط والمعادن إن ظهرت في أرض غير مملوكة لأحد، وغير ذلك، يقرها الإسلام حماية للدولة وصيانة لسلامتها والعمل على تقدمها، والمحافظة على مرافقها العامة[١].

فالأساس في اعتبار الملكية العامة أنها منفعة للجميع، فلو احتكرها بعض الأفراد لأنفسهم لكان فيه تضييق على الآخرين، وإلحاق الضرر بهم[٢].

وقد بين القرآن الكريم بعض أنواع الملكية العامة، كالفيء، وهو «المال المأخوذ من الكفار بغير قتال، كالخراج والجزية، أما المأخوذ بقتال فيسمى غنيمة»[٣].

قال القرطبي: «الفيء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفوًا صفوًا من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له»[٤].

قال تعالى في بيان حكم الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

فبين تعالى حكم الفيء ومصارفه، «فالفيء يقسم خمسة أقسام: خمس منها يقسم خمسة أخماس: سهم لله وللرسول، كان له في حياته ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته، وسهم لذوي القربى من أقارب الرسول، وهم: بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، وأما الأربعة أخماس الباقية فهي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وقد وزعها في حياته على المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين أظهرا الفقر، وبعد وفاته تصرف للمرتزقة من الجند، أي: للجيش ما لم يوجد لهم تبرع أو مرتب خاص»[٥].

قال القرطبي: «وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي كان من الفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعي في قول إلى

(١) انظر: الاقتصاد الإسلامي، محمود الوادي وآخرون ص ٩٧.
(٢) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٣٥.
(٣) التعريفات الفقهية، البركتي ص ١٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤.
(٥) التفسير الواضح، حجازي ٣/ ٦٤٦.

المجاهدين المترصدين للقتال في الثغور؛ لأنهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يقدم الأهم فالأهم.

وهذا في أربعة أخماس الفيء. فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف... وكذلك ما خلفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يصرف عنه إلى مصالح المسلمين»[1].

وهكذا يقرر القرآن الكريم مبدأ الملكية العامة في الأمة ويحترمها، ولكنه لا يجعلها تطغى وتستبد على الملكية الخاصة، بل إنه يوازن بين الملكيتين بما يحقق لكل منهما مصلحته، ودون أن تطغى إحداهما على الأخرى.

ومن الجدير بالذكر: أن دعاة بعض المذاهب الاقتصادية الفاسدة، يحتجون بقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ على أنه يجوز للدولة أن تستولي على مصادر الإنتاج ورؤوس الأموال؛ لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء، وما يسمونهم طبقة العمال.

وهذا على ما فيه من كساد اقتصادي، وفساد اجتماعي، قد ثبت خطؤه، وظهر بطلانه مجانبًا لحقيقة الاستدلال؛ لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة من الإنفاق على المجاهدين، وتأمين الغزاة في الحدود والثغور، وليس يعطى للأفراد كما يقولون، ثم هو أساسًا مالٌ جاء غنيمة للمسلمين، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه. ولما كان مال الغنيمة ليس ملكًا لشخص، ولا هو أيضًا كسب لشخص معين، تحقق فيه العموم في مصدره، وهو الغنيمة، والعموم في مصرفه، وهو عموم مصالح الأمة، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه، فشتان بين هذا الأصل في التشريع وهذا الفرع في التضليل[2].

ومن حماية القرآن الكريم للملكية العامة تحريمه الغلول، وهو: «الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة»[3].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وذلك لأن الغنيمة قبل قسمتها تكون ملكًا عامًا، فحرم تعالى الأخذ منها وهي كذلك، وتوعد من يفعله بقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يحمله يوم القيامة.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٢.

(٣) التعريفات الفقهية، البركتي ص ١٥٩.

قال القرطبي: «أي: يأتي به حاملًا له على ظهره ورقبته، معذبًا بحمله وثقله، ومرعوبًا بصوته، وموبخًا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد»(١).

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، ثم قال: (لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرسٌ له حمحمةٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفسٌ لها صياحٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاعٌ تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامتٌ(٢)، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك)(٣).

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: اعلم يا من تغل شيئًا ولو كان حقيرًا أنك ستعود إلينا وستحاسب على ذلك، حسابًا عادلًا لا ظلم فيه ولا تفويت، وفي هذه الآية تهديد شديد ووعيد لمن يعتدي على الملكية العامة.

ثالثًا: حفظ الحقوق الخاصة:

ومن مبادئ الاقتصاد التي بينها القرآن الكريم ودعا إليها: حفظ الحقوق الخاصة، كالدين، وقد أنزل تعالى بيان حكمه في أطول آية من كتابه.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فأمر تعالى بحفظ الدين بكتابته والإشهاد عليه حتى لا يضيع حق صاحبه، وفي طول الآية وما فيها من مؤكدات ما يدل على المبالغة الشديدة في الاحتياط في حفظ الحقوق لأصحابها وخاصة الحقوق المالية.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٢٥٦.

(٢) قال النووي: «والرغاء بالمد: صوت البعير، وكذا المذكورات بعد وصف كل شيء بصوته، والصامت: الذهب والفضة».

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٢/ ٢١٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، رقم ١٨٣١، ٣/ ١٤٦١.

قال الفخر الرازي: «حث على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سببًا لمصالح المعاش والمعاد،... والذي يدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار، وفي هذه الآية بسط شديد، ألا ترى أنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾.

ثم قال ثانيًا: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾.

ثم قال ثالثًا: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ فكان هذا كالتكرار لقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾؛ لأن العدل هو ما علمه الله.

ثم قال رابعًا: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ وهذا إعادة الأمر الأول.

ثم قال خامسًا: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾. وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ كفاية عن قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه.

ثم قال سادسًا: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وهذا تأكيد.

ثم قال سابعًا: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فهذا كالمستفاد من قوله ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾

ثم قال ثامنًا: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وهو أيضًا تأكيد لما مضى.

ثم قال تاسعًا: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة»[1].

ويضاف إلى ما ذكره الرازي ما بينته الآية وشددت عليه في مسألة الإشهاد على الدين.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، ثم بين تعالى الحكم في عدم وجود شهيدين من الرجال، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾، ثم أكد على أن يكون الشهيد مرضيًا عنه موثوقًا فيه، فقال: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، ثم بين تعالى العلة في تعدد النساء، فقال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: «لنقص عقلهن وضبطهن»[2]، فاحتاط الشارع لذلك.

قال الفخر الرازي: «فائدة الكتابة والإشهاد أن ما يدخل فيه الأجل، تتأخر فيه المطالبة ويتخلله النسيان، ويدخل فيه الجحد، فصارت الكتابة كالسبب لحفظ المال من الجانبين؛ لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه قد قيد بالكتابة والإشهاد يحذر من طلب الزيادة، ومن تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، ومن عليه الدين إذا عرف ذلك يحذر عن الجحود، ويأخذ قبل حلول الأجل في تحصيل المال، ليتمكن من أدائه

(١) مفاتيح الغيب، ٥/ ٢٥٢.
(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٦٣.

وقت حلول الدين»[1].

ومن الحقوق الخاصة التي بينها القرآن الكريم، وحث على حفظها وأدائها إلى أهلها: الميراث، وقد جاء تفصيل أحكامه في آيات كثيرة من القرآن الكريم، بين فيها تعالى تقسيم الفرائض، وحصة كل وارث؛ وذلك لأنه كسب بدون مقابل، والنفوس متطلعة إليه فتولى الله تعالى تقسيمه حتى لا تحصل النزاعات فيه[2].

وهكذا يقرر القرآن الكريم مبدأ حفظ الحقوق الخاصة أتم تقرير، ويدعو إلى حفظها والاحتياط فيها أبلغ درجات الاحتياط.

ومن المؤسف له في زماننا ما نشاهده من حرمان المرأة من حقها في الميراث أو انتقاص حقها، مع ما أمر الله به من الوفاء بهذا الحق قليلًا كان أو كثيرًا.

قال سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء:١١].

رابعًا: التكافل الاجتماعي:

من عظمة الاقتصاد الإسلامي تضمنه لمبدأ التكافل الاجتماعي، والذي يتحقق به التعاون والترابط في المجتمع، ويسود بين أفراده الحب والإخاء والاحترام، وينتشر بينهم جو السلم والأمن، وقد بين القرآن الكريم هذا المبدأ الاقتصادي وأرسى معالمه، فمن ذلك بيانه لشريعة الزكاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة:٦٠].

فبين تعالى مصارف الزكاة المفروضة:

١. ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ أي: الذين لا شيء لهم أو لهم شيء لا يقع موقعًا من كفايتهم.

٢. ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: الذين لا يجدون ما يكفيهم.

٣. ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي: المؤتمنين في السعاية والولاية على جمعها.

٤. ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ ليسلموا أو يثبت إسلامهم أو يسلم نظراؤهم أو يذبوا عن المسلمين.

٥. ﴿وَفِي﴾ فك ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ أي: المكاتبين.

٦. ﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ أهل الديون.

٧. ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: المجاهدين.

٨. ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المنقطع في سفره[3].

فبين تعالى مصارف الزكاة، وهي عماد

(١) مفاتيح الغيب، ٧/ ٩٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٤.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٥٠٤.

مبدأ التكافل الاجتماعي، وبها ينصلح حال المجتمع ويسود العدل والإخاء فيه، وبدأ تعالى بالفقراء، فهم أحق جماعة في المجتمع الإنساني بالرعاية والحماية من آفة الفقر التي تفتك بهم، وتتعبهم في حياتهم، ومحاربة هذه الآفة بالإضافة إلى كونها مساعدة للفقراء، فهي في نفس الوقت حماية للأغنياء أنفسهم، وضمانة لأمنهم وسلامتهم في أموالهم وأنفسهم من عادية الفقراء عليهم.

ذلك أن الفقير الذي يجد الغني يعينه ويكرمه، فإنه سيتمنى له الخير ويحبه، أما إذا وجد الفقير الغني لا يعطيه شيئًا، بل ويزداد غنى، وهو يزيد فقرًا، فلربما حقد عليه وأبغضه[1].

وإذا استمر به الحال كذلك فإنه قد يفكر في السرقة أو النهب أو القتل، وهكذا يفقد المجتمع أمنه وهدوءه، بل ويفقد خيرة أبنائه ممن لجؤوا إلى عالم الجريمة والانحراف ليسدوا احتياجاتهم[2].

«ومن هنا كان من تدبير الإسلام لمحاربة الفقر، وحماية الفقراء من قسوة هذه الآفة المهلكة، أن فرض على المسلمين الزكاة، وجعلها ركنًا من أركان الدين، لمن ملك نصابًا معينًا من المال، وكان من تدبير الإسلام أيضًا أن بدأ بالفقراء، وجعل داءهم هو الداء الأول، الذي يتهدد المجتمع، بالضياع، ويؤذنه بالهلاك، إن لم تعمل الجماعة جاهدة على محاربة هذه الآفة، ورصد كل قواها للقضاء عليها، وشفاء المجتمع منها»[3].

ولقد رغب القرآن الكريم بالإنفاق عمومًا في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[البقرة:٢٦١].

فضرب تعالى مثلًا لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾.

قال ابن كثير: «وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل، لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة»[4].

وجعل فعل الزكاة سببًا من أسباب الفلاح في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٤٣١.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٨٠٨.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٨٠٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩١.

إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون:٤].

ومن صور التكافل التي بينها القرآن الكريم: الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، حيث يتعاون الأفراد ويشتركون في الذود عن أنفسهم وديارهم، وذلك بالجهاد بالنفس والمال، والإنفاق على المجاهدين وتزويدهم بما يحتاجون إليه من مال وعتاد وغذاء.

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف:١٠-١٣].

فجعل تعالى الإيمان به والجهاد في سبيله بالمال والنفس تجارة رابحة تنجي صاحبها من العذاب الأليم، ويفوز بالمغفرة ودخول الجنان، والنصر على الأعداء.

ومن صور التكافل التي بينها القرآن الكريم: الإنفاق في الكفارات، ومنها:

❁ **كفارة اليمين.**

قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

فبين تعالى أن كفارة اليمين المنعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنث صاحبها فيها تكون بإحدى ثلاثة أمور على التخيير بينها، وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم من أوسط ما يطعم الحانث في يمينه أهله، والمراد بالوسط هنا: المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، أو أن يعتق رقبة، فإن لم يجد من ذلك شيئًا فليصم ثلاثة أيام[(١)].

ويرى بعض العلماء أن كلمة (أوسط) بمعنى الأمثل والأحسن، وهو ما يرجحه الباحث؛ لأن لفظ الأوسط كثيرًا ما يستعمل بهذا المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨].

أي: قال أحسنهم عقلًا وأمثلهم فكرًا ونظرًا[(٢)].

فجعل تعالى في تكفير العبد عن يمينه التي حنث فيها ما يتحقق به التكافل بين أفراد المجتمع، فيطعم أو يكسو ليس مسكينًا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٨٢-٨٣.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٦٦.

واحدًا بل عشرة مساكين يواسيهم ويعينهم، أو أن يعتق رقبة وفي ذلك تحرير لنفس من العبودية.

❁ **كفارة الإفطار في رمضان في حق الشيخ الكبير أو الزمن.**

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾[البقرة:١٨٤].

❁ **كفارة الظهار.**

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾[المجادلة:٤].

والظهار أصله مشتق من الظهر، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يقول لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه[١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾، «أي: فيه بأن يخالفوه بإمساك المظاهر منها الذي هو خلاف مقصود الظهار من وصف المرأة بالتحريم»[٢].

ثم بين تعالى الواجب على المظاهر إذا أراد أن يتدارك ويتلافى ظهاره، ويعود عنه، أن يعتق رقبة، فإن لم يجد فليصم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا[٣].

ويفعل ذلك قبل أن يجامع المظاهر زوجته التي ظاهر منها.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.

(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٢٥.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢١٦.

حماية الاقتصاد من عوامل الفساد

شرع المولى سبحانه وتعالى تشريعات من شأنها أن تحمي الاقتصاد من الانهيار وعوامل الفساد، وأن تحقق أمن الإنسان واستقراره وسعادته في الدنيا والآخرة، ومن عوامل الفساد الاقتصادي التي تحدث عنها القرآن ما يأتي:

أولًا: الربا:

قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[البقرة:٢٧٦].

فنبه تعالى بقوله: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ على أن الزيادة المعقولة المعبر عنها بالبركة مرتفعة عن الربا، ولذلك قال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[الروم:٣٩].

فأضاف المضاعفة إلى الزكاة[١].

والربا في الشرع هو: «فضل خالٍ عن عوض شرط لأحد العاقدين»[٢].

أو هو: «فضل أحد المتجانسين على الآخر من مال بلا عوض»[٣].

وعرفه الشافعية بأنه: «عقدٌ على عوضٍ مخصوصٍ غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخيرٍ في البدلين أو أحدهما»[٤].

وقد حرم الله سبحانه وتعالى الربا حماية للاقتصاد من عوامل الفساد، وذلك لما فيه من أضرار وخيمة عليه.

فالفائدة الربوية التي يحصل عليها المرابي لا تأتي نتيجة عمل إنتاجي، بل استقطاع من مال الفرد أو مال الأمة دون مقابل، كما أن فيه دفعًا للمرابي إلى الكسل والبطالة لتمكنه من زيادة ثروته بدون جهد أو عناء، كما أن الربا يؤدي إلى ظاهرة التضخم في المجتمع، وينمي الضغائن والأحقاد بين أفراده بسبب استغلال بعضهم البعض في حاجاتهم، وعدم مراعاة أوضاعهم ومشاكلهم[٥].

وقد توعد القرآن الكريم المرابين بحرب من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا

(١) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٣٤٠.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.
(٣) أنيس الفقهاء، القونوي ص٧٧.
(٤) مغني المحتاج، الشربيني ٢/ ٣٦٣، التوقيف، المناوي ص١٧٣.
(٥) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٨٧.

﴿يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾[البقرة:٢٧٥-٢٧٦].

إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٧٩].

وأخبر تعالى أن آكلي الربا: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: من قبورهم، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، وتوعدهم بمحق رباهم، أي: إذهاب بركته، وبأشد من ذلك وهو حرب منه تعالى، وبهذا التحذير القرآني من الربا وتعاطيه حماية للاقتصاد.

ثانيًا: الاحتكار:

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[الحشر:٧].

فبين تعالى أنه لا يريد أن يجعل المال دولة بين الأغنياء فحسب، أي: يتداولونه دون غيرهم، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس[١]، والاحتكار من أعظم الأسباب التي تجعل المال دولة بين الأغنياء، يتحكمون به في قوتهم، ويحددون سعر بيعه لهم.

قال الفخر الرازي: «معنى الآية كي لا يكون الفيء - الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها - واقعًا في يد الأغنياء ودولة لهم»[٢].

وقد حرم الإسلام الاحتكار؛ لأنه أكل لأموال الناس بالباطل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[البقرة:١٨٨].

ولما فيه من ظلم وتسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع[٣].

وفي الحديث عن معمر بن عبد الله رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يحتكر إلا خاطئٌ)**[٤].

قال النووي: «قال أهل اللغة: الخاطئ بالهمز هو العاصي الآثم، وهذا الحديث صريح في تحريم الاحتكار... والحكمة في تحريم الاحتكار دفع الضرر عن عامة الناس، كما أجمع العلماء على أنه لو كان عند إنسان طعام واضطر الناس إليه ولم يجدوا غيره أجبر على بيعه دفعًا للضرر عن الناس»[٥].

ثالثًا: السفه:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٣٨١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٥٠٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٥٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، رقم ١٦٠٥، ٣/ ١٢٢٨.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١١/ ٤٣.

من عوامل إفساده: حمايته من تصرفات السفهاء.

«السفه: السرف والتبذير... السفيه: من ينفق ماله فيما لا ينبغي من وجوه التبذير، ولا يمكن إصلاحه بالتمييز والتصرف فيه بالتدبير»[1].

وقد حمى القرآن الكريم الاقتصاد من السفه بالحجر على السفيه، رعاية لمصلحته، ومحافظة على ماله، وحتى لا يكون عالة على غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

قال السعدي: «السفهاء: جمع «سفيه» وهو: من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قيامًا لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها.

فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولًا معروفًا، بأن يعدوهم -إذا طلبوها- أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار»[2].

وفي سياق حماية الاقتصاد من السفه، أمر الله تعالى بحفظ مال اليتيم.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾[النساء:٦].

أي: اختبروا اليتامى المقاربين للرشد، فإن تبين رشدهم وصلاحهم في أموالهم، وبلغوا النكاح، فادفعوا إليهم أموالهم كاملة.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم.

﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها[3].

فحمى القرآن الكريم مال اليتيم من

(١) الكليات، الكفوي ص ٥١٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٦٤.

(٣) انظر: المصدر السابق.

تصرف اليتيم نفسه حال سفهه، ومن ولي اليتيم في رعايته لذلك المال.

رابعًا: الإسراف:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل إفساده: حمايته من الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٩].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًا للبخل ناهيًا عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا...

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا، وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك...

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا»[(١)].

وقال تعالى في النهي عن الإسراف في أموال اليتامى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾[النساء:٦].

أي: ينهى تعالى أولياء اليتيم عن أكل ماله من غير حاجة ضرورية.

﴿إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وَبِدَارًا﴾ أي: أي مبادرين إلى إنفاقها مخافة ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ رشداء فيلزمكم تسليمها إليهم، أي: لا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

«فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما»[(٣)].

قال ابن عاشور: «فوجه عدم محبة الله إياهم أن الإفراط في تناول اللذات والطيبات، والإكثار من بذل المال في تحصيلها، يفضي غالبًا إلى استنزاف الأموال، والشره إلى الاستكثار منها، فإذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٩٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٧.

ضاقت على المسرف أمواله، تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة، ليخمد بذلك نهمته إلى اللذات، فيكون ذلك دأبه، فربما ضاق عليه ماله، فشق عليه الإقلاع عن معتاده، فعاش في كرب وضيق، وربما تطلب المال من وجوه غير مشروعه، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدنيا أو في الآخرة، ثم إن ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة. وينشأ عن ذلك ملام وتوبيخ وخصومات تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة»[1].

والإسراف سبب من أسباب الفقر وإضاعة المال، فالمسرف يتبع شهوته ويجاريها، حتى إنه ربما افتقر وتعرض لسؤال الناس والتذلل لهم، أو ربما لجأ إلى الطرق المحرمة في سد شهواته، ثم إن الإسراف فيه استنزاف للموارد الموجودة دون مراعاة لقدرة الدخل الشرائية، مما يؤدي للعجز في تحقيق الموازنة في العملية الاقتصادية.

خامسًا: التعامل في المحرمات:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل الفساد، حمايته من التعامل في المحرمات، كالخمر والميسر والقمار والمخدرات وغيرها، لما فيها من مفاسد عظيمة عليه وعلى المجتمع، فالتعامل في القمار مثلًا وصرف الأموال فيه يجعل الإنسان يعتمد في كسبه على الحظ والأماني الفارغة، لا العمل والجد، كما أنه أداة لهدم البيوت العامرة، وتفريغ الجيوب من المال، وافتقار العوائل الغنية، وهو يورث العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع مما يهدد السلم المجتمعي، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وهكذا الحال في الخمر والمخدرات وغيرها من الأمور المحرمة التي تعود على الخمول والكسل، وتعطل الأمة عن العمل والإنتاج[2]، وتدفع بالمجتمع إلى الجريمة.

وقد نهى القرآن الكريم عن الخمر والميسر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

أي: ينهى الله عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، والأنصاب وهي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، والأزلام وهي قداح كانوا يستقسمون بها، فإنها شر من عمل الشيطان[3].

ثم بين تعالى المفاسد المتعلقة بالخمر

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ١٢٤.

(٢) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧٨.

والميسر، فمنها ما يتعلق بالدنيا من إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، مما يفضي بهم إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك فيه إضاعة لمصالحهم وتشويش لحياتهم، ومنها ما يتعلق بالدين وهو الصد عن ذكر الله والصلاة[1].

سادسًا: كنز المال:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل الفساد، حمايته من كنز المال وعدم أداء حقوقه، فالمال المكنوز لا ينتفع به، ولا يساهم في إنعاش الاقتصاد وتحسينه، ويحرم من المشاركة في العملية الإنتاجية بسبب طمع صاحبه وحرصه.

وقد حرم القرآن الكريم كنز المال قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾[التوبة:٣٤-٣٥].

فتوعد الله تعالى من يكنزون أموالهم، أي: يمسكونها، ولا ينفقونها في سبيل الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسر العذاب بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على أموالهم، في نار جهنم فيحمى كل دينار أو درهم على حدته، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم الله ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز[2].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٥.

الاقتصاد والأخلاق

الإسلام دين الأخلاق في جميع تشريعاته، دين الأخلاق في تشريعاته في العبادات وأحكام المعاملات، ودين الأخلاق في تشريعاته في الجهاد والحرب والسلم، ودين الأخلاق في تشريعاته في الاقتصاد وغيره من مناحي الحياة.

قال تعالى في وصف خلق النبي عليه السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)**[(١)].

وقد ربط القرآن الكريم بين الاقتصاد والأخلاق ربطًا وثيقًا، وذلك في آيات كثيرة منه، من ذلك أنه جعل الإيمان والتقوى والعمل الصالح سببًا لنمو الاقتصاد وزيادة الإنتاج.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

فبالإيمان والتقوى يبارك الله في أرزاق العباد وحياتهم، وقال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[نوح:١٠-١٢].

فالاستغفار وترك المعاصي سبب من أسباب زيادة الإنتاج ونمو الاقتصاد.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٢٨].

فنهى الله تعالى عباده المؤمنين عن تمكين المشركين من الاقتراب من الحرم بعد هذا العام التاسع من الهجرة، ثم أخبر تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي: «وإن خفتم فقرًا لانقطاع غارتهم عنكم، فإن الله سيعوضكم عنها، ويكفيكم من فضله إن شاء، إن الله عليم بحالكم، حكيم في تدبير شؤونكم»[(٢)].

ففي هذه الآية يبين القرآن أنه لا يجوز أبدًا تقديم المصلحة والغرض الاقتصادي على رعاية الفضائل التي يدعو إليها الدين، كما يبين أن اعتبار تلك الأخلاق في الاقتصاد هو أمر واجب، حتى ولو أدى ذلك إلى نقصان أو خسارة فيه، فلا شك أنه في منع حج الألوف وعشرات الألوف

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٨٩٥٢، ١٤/ ٥١٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٣٤٩.

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ١٩١.

من الحجاج خسارة اقتصادية كبيرة على المسلمين. ولكن عليهم أن يتحملوا ذلك في سبيل إيمانهم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الجمعة:٩].

«ولا شك أن استمرار الناس يبيعون ويشترون في كل وقت فيه كسب خاص لهم، وإنعاش للحركة الاقتصادية على العموم، لكن القرآن يأمر المؤمنين في يوم الجمعة، إذا سمعوا النداء أن يوقفوا دولاب العمل، ويعطلوا كل بيع وشراء ليسعوا إلى ذكر الله، وأداء فرضه الأسبوعي»[(١)].

فالقرآن لا يجيز لنا في سبيل تنمية اقتصادنا أن ننسى أوامر ربنا وطاعته.

قال تعالى في وصفه عباده المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[النور:٣٧].

وقال تعالى حاكيًا عن نبيه سليمان عليه السلام لما أرسلت إليه ملكة سبأ هدية ترشيه بها وتختبره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[النمل:٣٦].

ومع أن الهدية المالية فيها قيمة اقتصادية إلا أن سليمان عليه السلام رد هذه الهدية؛ لأنها كانت عوضًا عن سكوته عن الحق والدعوة إلى الإسلام والإيمان، فالهدية إن كانت على حساب العقيدة والقيم الأخلاقية، فهي مرفوضة مردودة. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٨٨].

أي: أن أكل المال يجب أن يكون بالحق والعدل، لا بالباطل والجور، وبهذا النهي الواضح الصريح عن أكل المال بالباطل يوضح القرآن العلاقة بين الاقتصاد والأخلاق ومدى ارتباطهما الوثيق.

قال السعدي: «أي: ولا تأخذوا أموالكم أي: أموال غيركم، أضافها إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة»[(٢)].

ويدخل في أكل الحرام للمال: السرقة والغش والغصب والربا ونحو ذلك مما حرمه الشرع الحكيم ونهى عنه.

كما بين القرآن بعض الأخلاق الفاضلة التي يلتزم بها المسلم في الاقتصاد، كالصدق والعدل، وعدم الكذب والغش والخداع.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

(١) المصدر السابق ص ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٨.

﴿ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة:١١٩].

أي: «الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم، لا تكون إلا صدقًا»(١)، وقال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[الأعراف:٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[المطففين:١-٣].

فتوعد الله تعالى المطفف الذي يبخس الناس حقهم، ونهى عن ذلك.

قال ابن كثير: «المراد بالتطفيف هاهنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم؛ ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: من الناس، ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون»(٢).

فأمرت هذه الآيات بالعدل وعدم الجور والغش في التعامل الاقتصادي مع الآخرين.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾[الأعراف:٢٩].

ومن أخلاق الاقتصاد التي بينها القرآن الكريم الوفاء بالعهد.

(١) المصدر السابق ص ٣٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٤٦.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[المائدة:١].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء:٣٤].

فبين تعالى أنه سيسألنا عن عهودنا وهل التزمنا بها أم لا؟.

كما أشار القرآن الكريم إلى قضية الإتقان في العمل، كما في قوله تعالى لنبيه داود عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[سبأ:١١].

فقوله: ﴿وَقَدِّرْ﴾ بتقدير دقيق، أي: يجب عليك يا داود عند صناعتك للدروع ونسجها أن تقدر ذلك تقديرًا دقيقًا، وفي ذلك دعوة قرآنية لأهل الصنائع والحرف أن يتقنوا أعمالهم وصناعاتهم، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الله جل وعز يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه)**(٣).

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الإنفاق، الربا، الزكاة، المال

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم ٤٣٨٦، ٧/ ٣٤٩، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٨٩٧، ١/ ٢٧٥، والبيهقي في الشعب، رقم ٤٩٣١، ٧/ ٢٣٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٨٨٠، ١/ ٣٨٣.